الإسراف في القرآن الكريم
موضوعاته – تراكيبه ودلالاتها السياقية

د.حواس بري
جامعة الجزائر2

اعتنى القرآن الكريم بموضوع الإسراف عناية لافتة؛ فقد تكررت مادة « أسرف « ومشتقاتها في القرآن الكريم ثلاثة وعشرين مرة. انتظمت في محاور متباينة، غير أنّ القارئ المتأمل يجد الآيات التي تناولت الإسراف بمعناه المادي غير مفصولة عن قضايا أخرى، كالإيمان و التشريع والاقتصاد والظلم بأنواعه، وكذا العلاقة الكائنة بين العبد وربه، وبين الإنسان وأخيه. قسمنا الدراسة إلى محاور كلها تسعى للإجابة عن ذلك التساؤل: هل الإسراف ورد بمعنى واحد أم بمعان مختلفة. هذا بعد أن عرفنا الإسراف لغة واصطلاحا. وعندما تأملنا آياته وجدناها تنتظم في أربعة محاور هي:

المحور العقدي وقد ورد في آيات الإعراض عن كتاب الله من قِبَل الكفاروالمشركين، ومع ذلك قابلهم الحق سبحانه بكريم عفوه وواسع رحمته { أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين } وفي السياق ذاته يأتي الإسراف مقترنا بالإعراض عن منهج الله وما يترتب عليه من معيشة ضنكى في الحياة الدنيا. وإعراض عن الكافروعدم الاعتداد

به، من قبل الحق سبحانه، { يوم لاينفع مال ولابنون } وهذا مآله إلى نارجهنم. { ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى...} كما ورد الإسراف متعلقا بتكذيب الرسل - عليهم السلام - كما هو الشأن مع قوم صالح { كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين...} وانتظم الإسراف مرتبطا بالتطير، حيث كان عرب الجاهلية يتطيّرون من كل ما من شأنه - في نظرهم - يَعُوق حركة توافد الخير عليهم. واستقر هذا السلوك في عقليتهم حتى أسهم في تكوين منظومتهم الاستشرافية، ويوم بعث الله فيهم الرسل تطيروا منهم أيضا، مع أنهم أُرسلوا هداة لهم بنور الوحي، مِن قِبَل خالقهم المسيطر على هذا الكون، والقادر على كل شيء فيه ومع ذلك { قالوا إنَّا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منّاعذاب أليم} .

وتتعطل السنن الكونية المتعارف عليها مع الله سبحانه وتعالى وتتهاوى فلسفة القوانين التي تربط السبب بالنتيجة، عندما يتعلق الأمر بإسراف العبد في الكفر والشرك والتكذيب... تتهاوى هذه المعاني ولا تصمد أمام رحمة الله سبحانه، وقد دخلوا جميعا تحت مظلة قوله تعالى { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله } تنفيرا لهم من اليأس وتبشيرًا لهم بالعفو المُفْضي إلى الرحمة. سبحانه من إله ! خلق عبادهُ ليرحمهم لا ليعذِّبهم.

أما المحور الثاني فاتصل بالإسراف المادي ؛ومنه ما اتصل بقضية المبالغة في أكل أموال اليتامى ؛حيث خاطب مَن تُسْنَد إليه إدارة أموالهم { ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا...} فقد جعل الله سبحانه لأموال اليتامى منظومة اقتصادية تُحفَظ من خلالها؛ فجعل قيودا تحكم الولي؛ فنهاه

عن تبذيرها والمبادرة بأخذها من جهة، ومن جهة أخرى نصَّت المنظومة الاقتصادية القرآنية أنَّ اليتيم يظل تحت المِحَكّ ؛ ولا ترد له أمواله مالم يُخْتَبر في كيفية تسييرها وتنميتها والمحافظة عليها { وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم}. كما عالج الإسلام كيفية المأكل والمشرب، وما اتصل بحياة المسلم جملة وتفصيلا، فيما تعلق بالإنفاق؛ فنهى الله عباده عن الإسراف في المباحات مطلقا؛ مخافة أن يتخذوها عادة، وحال الناس متقلِّبة من غِنىً إلى فقرومن سعة إلى ضيق، فدعا القرآن المؤمنين إلى الاعتدال في المأكل والملبس والمشرب { يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} وقد امتثل الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى النداء الرباني حتى أدى بهم إلى المبالغة في الاحتياط مخافة الزلل. وقد وردت آيات كثيرة دعت إلى الاعتدال والتوسط في الإنفاق وحاربت الإسراف حربا صريحة؛ دلت عليها العبارات والألفاظ، كعدم المحبة « لا يحب المسرفين « والنهي « لا تسرفوا «، { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط }

وبالجملة فإن ما ورد من آيات تعلقت بالإسراف في صورته المادية يشكل منظومة اقتصادية تُؤمِّن للناس حياة مستقرة في حدود ما كان في أيديهم، وهذا ما يساعد على ترسيخ مبدإ المحافظة على إحدى الكليات بوصفها مقصدا من مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة، وهو المحافظة على المال الذي تُقضى به حاجة الفرد والجماعة.

أما المحور الثالث، فاتصل بالمحافظة على كلية أخرى، وهي المحافظة على النفس البشرية بوصفها مُعْتَنى بها من جناب الله بما يرعاها ويؤَمِّن استمرارها، حتى تؤدي دورها في هذا الكون على أكمل وجه. غير أن عرب

الجاهلية أسرفوا في القتل عند القصاص، فمارسوا التجاوز فيه ؛ في أثناء الجبر أو حال التقاضي، فكان من عادتهم - قتل الإثنين بدل الواحد أو ترك القاتل وتجاوزه إلى غيره، وإن كان القاتل غير شريف استُبدل بشريف، فجاء الإسلام ليقضي على هذا الخلق الذميم بما شرعه رب العباد {ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا فلا يسرف في القتل إنّه كان منصورا} وبذلك حافظ الإسلام على أبنائه، ولم يعد من حق المقتول له أن يأخذ بالثأر بنفسه ؛بل صار الموضوع إلى أولي الأمر، وفق منظومة تشريعية، تحافظ على النفس البشرية التي قدّسها الله؛ ويقضى على التجاوز الذي مورس من قبلُ، ويكون بالدية أو بالقصاص وفي جميع الحالات يكون وليُّ المقتول منصورا وفق شريعة الله التي ارتضاها لعباده.

أما المحور الرابع فخصصه القرآن الكريم لنموذج بشري (تافه) فكان كل ما يصدر عنه إسرافا، حتى صار منجما للإسراف واستوى مادة قرآنية؛ لأنه الأنموذج في الكفر والكذب والتقليل والإشقاق وقد تعلق هذا جميعه بفرعون؛ فقد ذبّح الأبناء ليستمر في ملكه دون منازع - كأنه حي لا يموت - واستحيى النساء ليس حبا فيهن، بل للاسترقاق والاستعباد {ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين} وقد ورد ذكره في القرآن الكريم ثلاثة وسبعين مرة بوصفه نموذجا للإفراط في الانفلات العقدي فضلا عن إسرافه في ملاحقة الذين كانوا من أنصار موسى - عليه السلام - أو كانوا مسالمين خدما في مملكته { فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنه كان عاليا من المسرفين }.

وفي الصفحات القادمة نقف عند كل محور من هذه المحاور بالعرض والدراسة. أما القسم الآخر من هذا البحث فخصصناه للتراكيب التي

ورد الأسراف عليها ودلالاتها السياقية، ووقفنا على التراكيب من حيث الخصوصيات المتعلقة بالتركيب وما تفضى إليه من دلالات، وانتهى البحث بخاتمة لخصت نتائجه .

الإسراف لغة

- جاء في اللسان: أسرف الرجل إذا جاوز الحد، أسرف إذا أخطأ، أسرف إذا غفل، أسرف إذا جهل، وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب، وواعده أصحاب له من المسجد مكانا فأخلفهم . فقيل له في ذلك، فقال: مررت فسرفتكم أي أغفلتكم. والسرفة : دودة القز، وقيل : هي دُوَيْبة غراء تبني بيتا حسنا تكون فيه، وهي التي يضرب بها المثل، فيقال أصْنع من سرفة. وأرض سرفة كثيرة السرفة. سرف الطعام إذا أئتُكل؛ حتى كأن السرفة أصابته وسرفت الشجرة أصابتها السرفة، سرفت السرفة الشجرة تسرفها سرفا. إذا أكلت ورقها. وفي حديث ابن عمر أنه قال لرجل: إذا أتيت مني فانتهيت إلى موضع كذا، فإنّ هناك سرفة لم تجرد ولم تسرف، سار تحتها سبعون نبيا فأنزلْ تحتها. قال اليزيدي لم تسرف لم تصبها السرفة وهي هذه الدودة التي تقدم ذكرها.

ومسرف : اسم وقيل هو لقب مسلم بن عقبة المرّي صاحب وقعة المرة؛ لأنه قد أسرف فيها . قال علي بن عبد الله بن العباس:

هم منعوا ذماري يوم جاءت كتائب مسرف وبنو اللكيعة

أسرف في الكلام، وفي القتل أفرط . وفي القرآن الكريم { ومن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصورا} الإسراء33، قال المفسرون:لا يُقْتلُ غيرُ قاتله، وإذا قُتِلَ غيره فقد أسرف. السرف : تجاوز ما حُدد لك . السرف الخطأ، وأخطأ الشيء وضعه في غير حقه

قال جرير يمدح بني أمية:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ما في عطائهم مَنٌّ ولا سرف

أي إغفال وقيل ولا خطأ ؛ يريد أنهم لم يخطئوا في عطيتهم ولكنهم وضعوها موضعها1

السرف : الضراوة، السرف اللهج بالشيء. وفي الحديث أنّ عائشة – رضي الله عنها - قالت إن لِلّحم سرفا كسرف الخمر . يُقال هو من الإسراف. وقال محمد بن عمرو: أي ضراوة كضراوة الخمروشدة كشدتها؛ لأنّ من اعتاده ضُرِّي بأكله فأسرف فيه فِعْلَ مُدمن الخمر، في ضراوته بها، وقلة صبره عليها. وقيل السرف في الحديث من الإسراف، والتبذير في النفقة لغير حاجة، أو غير طاعة الله. شَبَّهت ما يخرج في الإكثار من اللحم بما يخرج في الخمر. وقد تكرر ذكر الإسراف في الحديث. والغالب على ذكره الإكثار من الذنوب والخطايا، واحتقاب الأوزار والآثام.2

ومما سبق يتضح أن الإسراف يأتي بمعان كثيرة وهي:

تجاوز الحد،الخطأ، الغفلة، الجهل، ويأتي بمعنى التبذير المفضي إلى الهلاك، وتجاوز الحد. ويأتي متصلا بالجوانب العقدية وغيرها. وقد تضمن الإسراف معنى الكفروالضلال، كما يأتي، بمعنى التجاوز، وقد تعلق بالمأكل والمشرب ليصير إسرافا تأباه عقيدة الاعتدال والوسطية.

كما يتداخل الإسراف مع الإفراط الدال على التجاوز كذلك، كما هو منصوص عليه في آيات من التنزيل الحكيم منها « إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى « والفرط ؛ الظلم والاعتداء وأمره فَرْط أي متروك . وفي حديث علي - رضي الله عنه - « لا يُرى الجاهل إلا مفْرطا أو مفرِّطا « هو بالتخفيف: المسرف في العمل، وبالتشديد المقصِّر فيه.3

وفي معجم التعريفات ورد الإسراف بمعان وهي:

إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس . -

تجاوز الحد في النفقة -

- وقيل أن يأكل الرجل ما لا يحل له. [وهذا اعتداء] أو يأكل ما يحل له فوق الاعتدال وقدر الحاجة [وهذا تبذير]

- وقيل الإسراف : تجاوز في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق، وقيل الإسراف صرف الشيء فيما ينبغي، بخلاف التبذير فإنه زائد على ما ينبغي .

وبالنظر إلى ما ورد في اللسان وما جاء في معجم التعريفات، يتضح أن الدلالة اللغوية وردت بمفاهيم كثيرة وجميعها تصب في معنى التجاوز الدال على الجهل والغفلة والاعتداء، وكل ذلك تأباه النفوس التي جبلت على الخير؛ فهي تتقن التصرف في الأموال ؛ بحيث تأخذ منها بقدر الحاجة وَوِفْقَ قانون الاعتدال والوسطية. أما النفوس التي جُبلت على التبذير فإنها لا تقبل غير الإسراف منهجا والإفراط سلوكا .

فكيف خاطب القرآن الكريم النفوس المؤمنة التي تحلّت بالاعتدال في الإنفاق، وكيف تعامل مع النفوس التي خرجت عن منهج الاعتدال والوسطية. وبعبارة أخرى ما هي موضوعات الإسراف في القرآن الكريم؟

أكان الخطاب موجها لفئة المؤمنين دون غيرهم، أم أنه استوعب نماذج بشرية كثيرة، تلبست بصفة الإسراف

وهل خاطب القرآن الكريم تلك الفئات والنماذج بالمعنى اللغوي للإسراف أم أنّ الخطاب كان بمفاهيم متباينة، استدعاها الحال والمقام؟

وهل ورد الإسراف بصيغة واحدة أم بصيغ كثيرة ؟

وتحاول الدراسة أن تجيب على هذه الأسئلة التي يطرحها البحث على امتداد صفحاته.

موضوعات الإسراف

المحور الأول:

الإسراف العقدي :

أ- الإعراض عن كتاب الله :

تتجلى عناية الله بعباده- مع إسرافهم في الإعراض عن القرآن- وما جاء فيهم من خطاب وكانوا المعنيين به أصالة،كما في قوله جل شأنه { حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين } الزخرف (5-1)

قوله (أفنضرب) إلغاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جملة { إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون } أي أتحسبون أن إعراضكم عمَّا نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجَدُّدَ التذكيربإنزال شيء آخر من القرآن، كلما أريدت إعادة تذكيرهم، وكانوا قد قَدّم إليهم من التذكير ما فيه هديهم، لو تأملوا وتدبروا. وكانت إعادة التذكيرلهم موسومة – في نظرهم – بقلة الجدوى، فبيَّن لهم الله سبحانه أن استمرار إعراضهم لا يكون سببا في قطع الإرشاد عنهم؛ لأن الله رحيم بهم، يحب صلاحهم،ولا يصده إسرافهم في الإنكار عن زيادة التقدم إليهم بالمواعظ والهدي. والاستفهام إنكاري؛ أي لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحا من جراء إسرافكم «5

والمقام دال على أنهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن... والإتيان بـ(أن) في قوله {أن كنتم قوما مسرفين} لتنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة مَنْ يُشَك في إسرافه؛ لأنّ توفر الأدلة على صدق القرآن، من شأنه أن يزيل إسرافهم . وفي هذا ثقة بحقّية القرآن، وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه 6 .

ودلّ فتح الهمزة في (أن كنتم) على أنها مصدرية بقراءة ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب. وتقدير لام التعليل محذوفا؛ أي لأجل إسرافكم؛ أي لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين، بل لا نَزال نعيد التذكير رحمة بكم 7.

وحاصل القول أنّ الإسراف إعراض عن الذكر وتخلٍ عنه من شأنه أن يكون من مسوّغات هلاكهم {أن كنتم قوما مسرفين } وعناية الله ورحمته اقتضتا التذكير، وهذه دلائل اللطف المقابَلَة بدلائل الإعراض.

ب-الإعراض عن منهج الله :

لاشك أنّ الإعراض عن منهج الله تترتب عليه متعلقات من شأنها أنْ تنعكس على نفسية المُعرِض بكل مامن شأنه أن يجعل حياته غير مستساغة، بسبب هجرانه المنهج في الحياة الدنيا ويُحشر يوم القيامة لا يرى، { كذلك أتتك آياتنا فنسيتها } إلى قوله { وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه } يبحث المسرف – هنا- عن الأسباب المؤدية إلى ما آل إليه من عمًى، فيجيبه الحق بسبب إعراضك عن آياتنا ونسيانها، والجزاء من جنس العمل.

هذا مُجمل آيات الإعراض وفيما يلي نسوقها حتى تكتمل الصورة، ثم نعقبها بآراء المفسرين قال تعالى {ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة

ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشدُ وأبقى أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى} طه 124–127

قال القرطبي:{ كذلك أتتك آيتنا } أي قال الله تعالى له كذلك أتتك أي دلالتنا على وحدانيتنا وقدرتنا فنسيتها؛ أي تركتها ولم تنظر فيها وأعرضت عنها وكذلك اليوم تُنسى. { وكذلك نجزي من أسرف } أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن وعن النظر في المصنوعات والتفكر فيها، وجاوز الحد في المعصية {ولم يؤمن بآيات ربه} أي لم يصدق بها. { ولعذاب الآخرة أشد } أي أفظع من المعيشة الضنك، وعذاب القبر أبقى أي أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي «8.

قال البغوي «{ وكذلك اليوم تنسى } تُتْرَكُ في النار.قال قتادة:»نُسوا من الخيرولم ينسوامن الجزاء». و(كذلك) أي وكما جزينا مَن أعرض عن القرآن،كذلك { نجزي من أسرف} ؛ أشرك 9.

وكذلك نجزي من أسرف قال الطبري في معنى الآية يقول تعالى جل ذكره وهكذا نجزي أي نثيب من أسرف به فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا ... ولعذاب الآخرة أشد وأبقى 10

أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : وكذلك نجزي من أسرف «قال ومن أشرك 11

وفي تفسير الجلالين (وكذلك) ؛ وقيل جزاؤنا من أعرض عن القرآن نجزي من أسرف، أشرك ولم يؤمن بآيات ربه 12

وفي فتح القدير{ وكذلك نجزي من أسرف }.» أي مثل ذلك الجزاء نجزيه والإسراف الانهماك في الشهوات وقيل الشرك» 13.

وفي تفسير النسفي قال ختم آيات الوعيد بقوله : «ولعذاب الآخرة أشد وأبقى « لمّا توعّد المعرض عن ذكره بعقوبتين ؛ المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى، (أشد وأبقى) أي للحشر على العمى الذي لا يزول أبدا أشد من ضيق العيش المقضي 14

دلالة الإسراف في السياق تجتمع آراء المفسرين حولها. والآية المفصولة عن آية الإسراف شكلا، لكنها شديدة الارتباط بها معنى. قوله تعالى { أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى} طه 128

قال أبو السعود الآية كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وكذلك نجزي الآية. والهمزة فيه للإنكار التوبيخي15

ومن خلال ما استعرضناه في كتب التفسير، تبيّن أنّ الإسراف العقدي من مسوغات الكفر أو هو الكفر عينه، وقد أجمع المفسرون على هذا المعنى واتفقوا على هذا المصطلح ؛ كونه يتساوق مع الكفر، وقد دلت القرائن المتصلة في الآيات السابقة واللاحقة واتصلت ببعضها لتعطي معنى أجمعت عليه مضامينها فضلا عن دلالة السياق وتعاطف الجمل لشدة ارتباطها ببعض.

ويعضد هذا ما إليه ابن عاشور في جملة التذييل. قال و جملة « وكذلك نجزي من أسرف « الخ... تذييل، يجوز أن تكون من حكاية ما يخاطب الله به مَن يُحشر يوم القيامة أعمى، قصد منها التوبيخ له والتنكيل به، فالواو عاطفة الجملة على التي قبلها .ويجوز أن يكون تذييلا للقصة وليست من

الخطاب المُخَاطَب به من يُحشر يوم القيامة أعمى، قصَد منها موعظة السامعين ليحذروا من أن يصيروا إلى مثل ذلك المصير. فالواو اعتراضية ؛ لأنّ التذييل اعتراض في آخر الكلام . والواو الاعتراضية راجعة إلى الواو العاطفة إلا أنها عاطفة مجموع كلام على مجموع كلام آخر، لا على بعض الكلام المعطوف عليه. والمعنى: ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف، أي كفر، ولم يؤمن بآيات ربه فالإسراف: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات16

ومما سبق اتضح أنّ الإسراف في الآية السابقة ورد بمعنى الإعراض عن آيات الله ومنهجه الذي يَسلم به عبادُه المؤمنون من كل ما يعكر حياتهم؛ حالة حرصهم على السير وفق المنهج الذي رسمه لهم مولاهم، وينعكس هذا على نفوسهم بالسعادة والاستقرار، وعلى العكس منه يحيا الذين أعرضوا عن آياته كما رأينا.

ج- تكذيب الرسل :

ويأتي الإسراف العقدي متصلا بأولئك الذين بعث الله فيهم الأنبياء، غير أنهم قابلوا دعوتهم بالإعراض والتكذيب. ودعوة الأنبياء الناس كانت لإخراجهم من ظلمات الجهل، وتحرير عقولهم من الأوهام بنور الوحي، غير أن الأنبياء كانوا يُقابَلون بالإعراض والتكذيب، فعدّ القرآن هذا من الإسراف الذي يترتب عليه هلاكهم. ومن أولئك الذين كذبوا الرسل الذين بعثوا فيهم، قوم ثمود. وقد حكى القرآن عنهم ذلك السلوك فقال: {كذبت ثمود المرسلين إذْ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجري إلا على رب العالمين أتُتْركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها

هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون } الشعراء (-141 152) استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامتثال الآمر أو نسب حكم الآمر إلى أمره مجازا { الذين يفسدون في الأرض } وصف موضع لإسرافهم ولذلك عطف ولا يصلحون) على (يفسدون) دلالة على خلوص فسادهم. 17

وفي السياق ذاته . قال البغوي» {ولاتطيعوا أمر المسرفين}.قال ابن عباس:المشركين .وقال مقاتل :هم التسعة الذين عَقَروا الناقة وهم {الذين يفسدون في الأرض} بالمعاصي { ولايصلحون }؛ لايطيعون الله فيما أمرهم به»18 .

وللعطف بلاغته في هذا السياق المتصل بالإسراف، وقد التفت ابن عاشور إلى بلاغة الإشارة في قوله {أتتركون في ما هاهنا آمنين} فقال «و{ هاهنا } إشارة إلى بلادهم، أي في جميع ما تشاهدونه، وهذا إيجاز بديع و{ آمنين } حال مُبَيِّنة لبعض ما أجمله قوله { فيما ها هنا }. وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة؛ لأنها لا يشار إليها، وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها.

وقوله { في جنات } ينبغي أنْ يُعَلّق ب{ آمنين } ليكون مجموع ذلك تفصيلا لإجمال اسم الإشارة، أي اجتمع لهم الأمن ورفاهية العيش».

قوله: كذبت ثمود: تكذب المرسَلين إليها، ولما أُرسل إليهم صالح حضَّهم على تقوى الله وبيّن لهم أنه رسول مشهود له بالفضائل، ومنها الأمانة غير أنهم قابلوه بالصدود، فقالوا { إنما أنت من المُسَحَّرين } المقتضي تغيير حاله عما كان عليه وهو ما حكاه الله عن قومه {قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا}

أما الآيات { أتتركون في ما ها هنا آمنين } إلى قوله { ولا يصلحون} هي تذكير بما منّ الله به على قوم صالح غير أنهم قابلوا النعم بالكفر والإعراض عن الله، وفي هذا المعنى يقول العلامة ابن عاشور « كانوا قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى وأنكروا رسولا يذكّرهم بنعم الله عليهم بما مكّن لهم من خيرات وما سخّر لهم من أعمال عظيمة، ونزّل حالهم منزلة من يظن الخلود ودوام النعمة، فخاطبهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي وهو في المعنى إنكار على ظنهم ذلك . وسلط الإنكار على فعل الترك ؛ لأن تركهم على تلك النعم لا يكون، فكان إنكار حصوله مستلزما إنكار اعتقاده ... وفيه حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها» [كما قال صاحب الحكم من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها]

والمراد بـ (المسرفين) أئمة القوم، و كبراؤهم الذين يُغْرونهم بعبادة الأصنام حتى يستمروا في الضلال؛ استغلالا لجهلهم وليسخِّروهم للأتمار بأوامرهم . فالإسراف - هنا - منوط بالفساد ؛ فساد العقيدة أفضى إلى الإفراط في استغلال الآخرين والسعي في إبعادهم عن الفطرة، وتحويلهم إلى عبادة الأوثان والأصنام» 19. التفت ابن عاشور إلى بلاغة العطف في هذا السياق المتصل بالإسراف أيضا، فقال 20 وعطف {ولايصلحون} على جملة { يفسدون في الأرض } تأكيد لوقوع الشيء، بنفي ضده؛ مثل قوله تعالى { وأضل فرعون قومه وما هدى }

وقول عمر بن مرة الجهني :» النسب المعروف غير المنكر». يفيد أن فسادهم لا يشوبه صلاح ؛ فكأنه قيل : إنما هم مفسدون في الأرض ؛ فعدل عن صيغة القصر لئلا يحتمل أنّه قصر مبالغة؛ لأنّ نفي الإصلاح عنهم

يؤكد إثبات الإفساد لهم، فيتقرر ذلك في الذهن ويتأكد معنى إفسادهم بنفي ضده كقول السموأل:

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

فقد اقترن الإسراف بالفساد المتصل بتحويل الناس إلى غير ما جُبِلوا عليه، لعبادة الأوثان؛حيث استدرجهم (الكبراء) لاستغلالهم ثم لتركهم في غيّهم يَعمْهَون. وعطف الفساد على عدم الإصلاح ؛لأنهما سواء؛ حيث يؤديان إلى معنى واحد؛ فالمُفسِد غير صالح .

د. الكفروالكذب :

ومن معاني الإسراف العقدي المفضي إلى الهلاك؛ الكفروالكذب ، وقد حذرالله منه عباده بفحوى الخطاب : الآية الآتية التي دل فيها سبحانه أنه يُلْحِق الهلاك بالمسرفين، بصيغة المُضي وفي ذلك تطمين من الله إلى الذين يسرفون ولا يصِرّون على إسرافهم. وحاصل هذا المعنى في قوله تعالى: { ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين } الأنبياء 9

والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى {من نشاء} احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجِّي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا ؛ لأنَّ من المكذِّبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة، وهذا من لُطْف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة، وبقي المقصود من الذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أنْ يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد.

والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب 21

وورد الإسراف بمعنى الكفر؛ فيما حكى القرآن عن الرجل الذي صدع بالحق دفاعا عن موسى عليه السلام. { قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أنْ يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإنْ يكُ كاذبا فعليه كذبه وإنْ يكُ صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب } 2غافر28

والمسرف : متجاوز المعروف في شيء، فالمراد - هنا - مسرف في الكذب ؛لأن أعظم الكذب أنْ يكون على الله، قال تعالى { ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء } الأنعام 93 وإذا كان المراد الإسرافَ في الكذب تَعَيَّنَ قوله (كذّاب) كما في سورة غافر عطف بيان وليس خبرا ثانيا إذْ ليس ثَمّةَ إسراف - هنا - غير إسراف الكذب، وفي هذا اعتراف من هذا المؤمن بالله الذي أنكره فرعون، ورماه بين ظهرانيهم.

ويجوز أن تكون جملة { إن الله لا يهدي } إلى آخرها جملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه وإنما هي قول من جناب الله في قرآنه، يقصد منها تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله للحق، وأنه تقي صادق، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه ؛ لأنه نطق عن هدى، والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذاب 22.

وهكذا تبين أنه من معاني الإسراف الكذب المتعلق بالعقيدة المتصلة بوحدانية الله، وتبين بمفهوم المقتضى أنّ مؤمن آل فرعون منزه عن الكذب فضلا عن الكفر. أما فرعون فمسرف كذاب كافر.

هـ. التطير :

كان العرب في الجاهلية يتطيّرون من كل ما من شأنه- في نظرهم-

يعوق حركة قدوم الخير إليهم وارتبط هذا السلوك بعقليتهم حتى شارك في تكوين منظومتهم الاستشرافية وأدى بهم سفههم إلى التطير من الأنبياء الذين أرسلوا لهديهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا السفه كما ورد في سورة يس عن أصحاب القرية. قال تعالى {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم و ليمسنّكم منّا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون} يس 13/19

قال النسفي: { إنا تطيرنا بكم } تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ؛ وعادة الجهال أن يتيمَّنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه؛ فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك { بل أنتم قوم مسرفون} متجاوزو الحد في العصيان ومن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم لامن قبل رسول الله وتذكيرهم، أو بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله . 23

إن الإسراف الوارد في الآية السابقة أفضى إلى الكفر؛ كون الذين اتصفوا به أفرطوا في غيهم وتشاؤمهم واتبعوا ما اشتهت نفوسهم وكرهوا كل ما يخالف هواهم، وإن كان فيه صلاح أمرهم، وأعلاه دعوة الرسل، وما دامت حالهم على ذلك النحو وافق العلامة ابن عاشور من سبقوه من المفسرين وزاد في معنى الإسراف في الآية توضيحا فقال { بل أنتم قوم

مسرفون } أي لا طيرة فيما زعمتم ولكنكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرا لكم وظننتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر، وفساد الاعتقاد ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت .

والإسراف في التشاؤم من شأنه أن يفضي إلى فساد الاعتقاد الموطئ إلى الكفر يعضده قوله تعالى { والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة } سورة البلد 18

ومما سبق يتضح أن للإسراف معنى آخر حين يتصل بالتشاؤم الذي تتعاطه النفوس الخاوية من الإيمان وغير المتعلقة بحبل الله المتين، فإنها بذلك تصاب في اعتقادها، فتهوى بهذا التصور الذي يدل على أن قلوبها مرتبطة بأوهام لا تقدم ولا تؤخر في قضاء الله وقدره شيئا.

و- اليأس من رحمة الله :

وفي سياق الإسراف المتصل برحمته، تتعطل السنن المُتَعَارف عليها مع الله سبحانه وتتهاوى فلسفة القوانين التي تربط السبب بالنتيجة . وفي هذا السياق طمأن الله عباده أن لا ييأسوا من كرم عفوه واتساع رحمته فقال جل شأنه { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم } الزمر 53

ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس «أنّ ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا – صلى الله عليه وسلم - فقالوا إنّ الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أنّ لِمَا عملنا كفارة يعني وقد سمعوا آيات الوعيد؛ مَن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا بتلك الأعمال أنّها جرائم وهم في جاهلية « فنزل {والذين لا يدعون مع الله إلها

آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون } وهنا يحسن بنا أنْ نقف عند رسم المصحف لدلالته وإشارته الخفية، وتتجلى هذه اللطيفة- هنا - في قراءة الجمهور{ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ...} لعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها كقوله تعالى: {قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم}.

إنّ الخطاب -هنا - للذين أسرفوا، وفي مقدمتهم المشركون، وكلهم مَظَنّة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (الياء) العائدة إلى الله سبحانه، في مخاطبتهم زيادة تصريح بعلامة التكلم. تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أنّ شأن الرب الرحمة بعباده

وبعد هذا فعموم (عبادي) وعموم صلة (الذين أسرفوا) يشمل أهل المعاصي من المسلمين وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعها 24 وفي سياق الآية، سأل علي – رضي الله عنه – أي آية في القرآن أوسع،فجعلوا يذكرون آيات من القرآن، فقال علي ما في القرآن أوسع من (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) 25 ، الآية ويستفاد من هذا النظر الفسيح الذي أبداه ابن عاشور حول الآية أنّ دلالة الإسراف – هنا – هي الإكثار من متعلقات الشرك ولذلك خصّ الله المشركين بالخطاب بدلالة إضافة (يا) المتكلم للعباد وتبين أن دلالة الإسراف في الآية خاصة بالذنوب والمعاصي، التي قابلها الله برحمته ولطفه وكرم عفوه سبحانه من إله رحيم غفور وبعد فتح باب التوبة وقبول الله عباده العائدين إليه فإن المعرض منهم يكون قد أسرف في كفره وعناده.

المحور الثاني: الإسراف المادي:

أ- المبالغة في أكل مال اليتيم:

حارب الإسلام أكل أموال القُصّروالسفهاء بغيروجه حق بعموم اللفظ ثمّ خصّ بالخطاب الذين تسند إليهم إدارة أموال اليتامى ؛ كونهم مظنّة الزلل ولذلك جعل الإسلام ضوابط شرعية تُحفظ بها أموالهم، من ذلك قول الحق سبحانه { وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف } النساء 6

كما نهى الحق سبحانه القائم على كافل اليتيم أن يعبث بأمواله، بل عليه أن يسعى لتنميتها والمحافظة عليها، لا أن يستغل عجز اليتيم ويتصرف في أمواله وفق هواه، وقد جعل الله سبحانه لأموال اليتيم منظومة اقتصادية تحفظ من خلالها أمواله، فجعل قيودا تحكم الولي ؛ حيث نهاه عن تبذيرها والمبادرة بأخذها، حتى إذا بلغ القاصروصار مؤهلا لإدارة أمواله لم يجد شيئا منها وهو المعبّرعنه في الآية (إسرافا وبدارا) وحقق في هذا المعنى ابن عباس- رضي الله عنهما - حيث قال : قوله (إسرافا وبدارا) يعني أكل مال اليتيم مبادرا أن يبلغ فيحول بينه وبين ماله 26 وفي السياق ذاته عن ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله (إسرافا وبدارا) قال هذه لولي اليتيم خاصة ؛ جعل له أن يأكل معه إذا لم يجد شيئا، يضع يده معه فيذهب بوجهه ؛ يقول لا أدفع إليه ماله وجعلت تأكله وتشتهي أكله ؛ لأنك إن لم تدفعه إليه، لك فيه نصيب وإذا دفعته إليه فليس لك فيه نصيب .27

كما نصت المنظومة الاقتصادية القرآنية على أنّ اليتيم يظل تحت المحكّ ولا ترد له أمواله ما لم يختبر في كيفية تسييرها وتنميتها فضلا

عن المحافظة عليها فقال جل شأنه (وابتلوا اليتامى) الآية جاء في تفسير الألوسي « إنّ المراد من ابتلاء اليتامى المأمور به ابتلاؤهم فيما يتعلق بمصالح حفظ المال»

وقد قال الله تعالى بعد ذلك الأمر (فإن آنستم منهم رشدا)» فيجب أن يكون المراد ؛ فإن آنستم رشدا في ضبط مصالحه فإنه إن لم يكن المراد ذلك تفكّك النظم ولم يبق للبعض تعلق بالبعض، وإذا ثبت هذا علمنا أنّ الشرط المعتبر في الآية هو حصول الرشد في رعاية مصالح المال لا ضرب من الرشد كيف كان!

ثم قال: «والقياس الجليّ يقوّي الاستدلال بالآية ؛لأن الصبي إنما منع منه المال لفقدان العقل الهادي إلى كيفية حفظ المال وكيفية الانتفاع به»28، فإذا كان هذا المعنى حاصلا في الشاب والشيخ كانا في حكم السفيه، وجب أن يُمنع دفع المال إليهما إن لم يؤنس منهما الرشد .

وبه اتضح أن السطو على أموال اليتامى، والاعتداء عليها بالأكل غير المباح أو حرمان اليتيم منها مطلقا، يعد جريمة يبشر مقترفها بالنار، قال تعالى {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا } النساء 10، ولله حكمة في هذا التعبير القرآني المعجز فقد أمر الوصي أن يدفع لليتيم أمواله حال تأهله لإدارتها، ولعل في التعبير باليتيم مدعاة لاستثارة عطف الوصي؛ إذ يُذكّر - حين أوان دفع المال لصاحبه - أن الذي مكّنه من ماله هو يتمه؛ فاليتم علّة جعلت المال يتحول إلى الوصي على سبيل الوكالة وليس على سبيل التملك فالوكالة تحل محل العقد القابل للفسخ. والأوصياء، على أموال اليتامى نُهوا عن الإسراف و البدار، وذُكّروا بأنّ الوصاية مجازية كونها ليست مطلقة بل مقيدة بزمن معين تسنده

القرائن الدالة على أن اليتيم تحول من السفه إلى الرشد وصار بِمُكْنته المحافظة على أمواله فضلا على تنميتها وإدارتها هذا ما أفاده منطوق الإسراف من خلال الآيات ودل على أنّ أكل مال اليتيم عنوة والاستيلاء عليه من الإسراف المفْضي بصاحبه إلى مالا يحمد عقباه.

ب- في المباحات مطلقا :

وإذا كان من الإسراف ما هو مفض إلى الكفر ودال عليه- كما رأينا سابقا- فإن الله سبحانه وتعالى دعا عباده إلى الاعتدال في المأكل والملبس، وفي كل متعلقات حياتهم المادية حتى لا تذهب أموالهم سُدًى أو توضع في غير مواضعها القمينة بها، فنهى الله في كتابه عن الإسراف المتعلق بتجاوز الحد المتصل بالاستهلاك في المواضع الآتية :

الإسراف في المأكل والملبس :

قال جل شأنه { يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } الأعراف31. أي لايرتضي إسرافهم 29

وفي سياق الآية قال ابن عباس- رضي الله عنهما- أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مَخْيَلة.فأما ماتدعوالحاجة إليه، وهوسدّ الجوعةَ وأسكن الظمأ فمندوب إليه عقلا وشرعا؛ لما فيه من حفظ النفس، وحراسة الحواس، ولذلك وردالشرع بالنهي عن الوصال؛ لأنه يضعف الجسد ويميت النفس ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل» 30.

وللأسباب السالفة الذكر نهى الله عباده عن الإسراف في المباحات مخافة أن تكون دأبهم وديدنهم، وحال الناس متقلبة من غِنًى إلى فقر

ومن سعة إلى ضيق، فدعا القرآن الكريم إلى الاعتدال في المأكل والملبس والمشرب، فقال تعالى{ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } الأنعام 142

ونفي المحبة ليس عن ذواتهم بل هو عدم الرضا عن إسرافهم . ومما سبق يتضح أن نهي الحق سبحانه عن الإسراف فيما هو مباح، هو مطلق العلم بالنفس البشرية حين لا توجه التوجيه السديد وتتربَّى تربية يكون للنفس فيها سلطان على العقل، فتتعود عادات مباحة غير أنها مُكْلِفة، ومع مرور الزمن يصعب الإقلاع عنها، ويكون لها انعكاس - فيما بعد- على الأسرة والأبناء فتهتز بأسباب متطلباتها. وفي دنيا الناس نماذج بشرية أسقطها الإسراف وحوَّل حالها من نماذج بشرية يُعَوَّل عليها إلى نماذج بشرية متساقطة متهاوية.

وهكذا ربَّى الإسلام الجيل القرآني على قانون الاعتدال القاضي بإماتة الشهوات في النفس وعدم التضحية بها في سبيل الشهوات. وذاك ما نقف عليه في سير الصحابة والتابعين، يعملون بالآيات التي نهت عن الإسراف في المأكل والملبس وغيرهما. وأما الأحاديث فمنها: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم – « من السرف أن تأكل كلّ ما اشتهيت « 31. خرّجه ابن ماجة في سنن.

وقيل «من الإسراف الأكل بعد الشبْع وكل ذلك محظور» وقال لقمان لابنه: يابني لاتأكل شبْعا فوق شبع ؛ فإنك إن تنبذه للكلب خير من تأكله «

وهذا مما يدل أن للنفس دخلا كبيرا في الإسراف - وإن اتصل بالحلال - فهي تهوى كل محظور، و تريد الزيادة من المُباح، ولو أدى إلى فساد الجسم والمال. ولخطورة الأمر وجَّه الإسلام أتباعه إلى الانتفاع من الملذات

مع الاقتصاد والاعتدال في الأخذ والاستفادة، مما تفضّل الله به على عباده. وبالنظر إلى الآيات السابقة لهذه الآية، وقد حكت ما كان عليه أهل الضلال من إسراف تعلق بالإفراط والتفريط، فجاءت هذه الآية معترضة بين السابق واللاحق. وفي هذا المعنى قال صاحب التحرير والتنوير» غيّر أسلوب الحكاية عن أحوال المشركين، فأقبل على خطاب المؤمنين بهذه المِنَّة وهذا الحكم، فهذه الجمل معترضة، وهي تعريض بتسفيه أحلام المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما منّ الله به عليهم « 32 وبه اتضح أن الإسلام يحارب التقتير المُفْضي إلى إخفاء النِّعم التي مَنَّ الله بها على عباده، وفي الأثر» إن الله يحب أن تظهر نعمه على عباده.» وكان الإمام مالك - رحمه الله - يسير على ذلك النحو. والتزم الصحابة و التابعون بالاعتدال؛ حيث وقفوا عند حدود قوله تعالى { والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا وكان بين ذلك قواما } الفرقان67.

وهي دعوة للوسطية التي قضت بها آيات سورة الإسراء { ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما مدحورا } الإسراء 29.فقه الإمام علي - كرم الله وجهه- هذا المعنى فترجمه بقوله: « فدع الإسراف مقتصدا واذكر في اليوم غدا وأمسك المال بقدر ضرورتك وقدم الفضل ليوم حاجتك «33 .

وفي السياق ذاته نجد النهي عن الإسراف يتكرر في سورة الأعراف. قوله تعالى { يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } الأعراف 31

ونفي المحبة الوارد في حق المسرف تلقاها الصحابة بوجل مما حدا بهم إلى تربية نفوسهم وفق المنهج الذي ارتضاه لهم الله ورسوله، ونجد صدى الالتزام بالنص والعمل بمضمونه مترجما عند المؤمنين الذين { قالوا سمعنا وأطعنا } وفي هذا السياق قال ابن عطية ... وإنما التأديب في هذه الآية هو في نقطة الطاعات في المباحات، فأدبُ الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا وألا يضيق أيضا ويقتر حتى يُجيع العيال ويفرط في الشح34 وفهم الصحابة الآية وعملوا بمقتضاها . قال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية « أولئك أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثيابا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يدفع عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم من الحر والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة ما نفقتك فقال عمر «الحسنة بين سيئتين ثم تلا هذه الآية 35 وقال ابن عاشور وقد قيل إن هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء فالنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله { قل من حرم زينة الله } – إلى قوله – { والطيبات من الرزق } «، ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلق به التكليف، ولكن يوكل إلى تدبير الناس مصالحهم، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقا : { قل أمر ربي بالقسط } فإن ترك السرف من معنى العدل 36.

استنبط العلامة محمد الطاهر بن عاشور مقصدا شرعيا تعلق بحفظ الصحة من الآية السابقة حيث قال « وقد قيل إنّ هذه الآية جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء، وأكد علم التغذية هذا المعنى مما تعلق

بالمأكل والمشرب { وكلوا واشربوا ولا تسرفوا } قال والإسراف : ... تجاوز الحد المتعارف في الشيء ؛ أي : ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم ؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة 37.

وينصح الأطباء مرضى البدانة بالابتعاد عن اللحوم الحمراء والألبان ومشتقاتها، وكل ما من شأنه أن يعمل على تكوين الشحوم المفضية إلى الكولسترول والخبيث منه خاصة وما ينتج عن تفاقمها من آثار جانبية خطيرة كانسداد الشرايين في الأوعية الدموية وما ينجرّ عنها من عمليات تتعلق بالقلب كالقسطرة أو التجلط الدماغي المؤدي إلى الشلل النصفي.

وهكذا اتضح أن الإسراف في الآية له دلالة عميقة تكشف عن الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة . وتلك دلالة قاطعة على أن هذا الكتاب العزيزاعتنى بهذا الجسم الذي خلقه الله سبحانه،فعلم الله ما يصلحه فأمر عباده بإصلاح أبدانهم وعلم ما يفسدها فنهاهم عن إلحاق الضرر بها. وبه حققت الآية مقصدا شرعيا عظيما تجلى في المحافظة على الجسم.

ويأتي الإسراف ليتقاطع مع اتساع رحمة الله للدلالة على كرمه وعفوه حتى لا يقنط العبد من مولاه فقد خلقه ليرحمه لا ليعذبه.

ج- الإنفاق بين الجاهلية والإسلام :

وإذا ذمّ الإسلام الإسراف فإنه مدح الاعتدال والتوسط في الإنفاق، سواء فيما يتصل بمن يعُولهم، أو المحاويج الذين يتصدق عليهم،» وقد شاع في الجاهلية الأولى أنهم يسرفون في النفقة على اللذات ويُعِلون السباء في الخمر ويتممون الأيسار في الميسر. و أقوالهم في ذلك كثيرة في أشعارهم، وهي في معلقة

طرفة ومعلقة لبيد، وفي ميمية النابغة. ويفتخرون بإتلاف المال ليتحدث العظماء عنهم بذلك» 38 قال الشاعر مادحا:

مفيد ومتلاف إذا ما أتيته تهلل واهتز اهتزاز المهند

حارب الإسلام هذا الخلق الذميم، ودعا أتباعه إلى المنظومة القرآنية للإنفاق. فقال جل شأنه {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما } الفرقان 67، قال ابن عاشور: (وأراد الإنفاق – هنا – الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه ؛ لأنّ الإنفاق الواجب لا يُذَم الإقتار فيه على أنّ في قوله (إذا أنفقوا) إشعار بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجبا عليهم» 39

وقد قضت حكمة الإسلام أن تؤسس المنظومة الاقتصادية التي تتمتع بالديمومة والاستمراروفق قانون يذم الإسراف ويمدح الاعتدال المعبَّرعنه بالقوام، وقد حرر العلامة ابن عاشور في هذا المقصد الشرعي الذي تتم به المحافظة على المال الوارد في سياق الآية ما نصه حيث قال « و المعنى أنهم يضعون النفقات في مواضعها وكما أمرهم الله، فيدوم إنفاقهم وقد رغَّب الإسلام في العمل الذي يدوم عليه صاحبه، ليسير نظام الجماعة على كيفية دون تعريضه للتعطيل فإن الإسراف من شأنه استنفاد المال فيتوقف الإنفاق. وأما الإقتار فمن شأنه إمساك المال فيحرم من يستأهله « 40 وهكذا تتضح فلسفة الإسلام في المحافظة على المال؛لأنه أحد مقومات الجماعة الإسلامية القائمة على التكافل بين المسلمين {وفي أموالهم حق للسائل والمحروم } الذاريات 19، وفي سورة المعارج { والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم } الآية 25 ولذلك نهى الحق سبحانه عن الإسراف حتى لاتضيع حقوق الفقراء بسفه الأغنياء.

د- وضع الشيء في غير موضعه:

ومن معاني الإسراف في القرآن الكريم وضع الشيء في غير موضعه وللخطورة التي تضمنها معنى الإسراف. أخبر القرآن الكريم عن قوم لوط الذين اتصفوا بالبهيمية الصرفة؛ لأن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع، لاقضاء الوطر. حكى القرآن عن أولئك الذين انحرفوا عن المنهج فقال: {ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون} الأعراف 81، ذهب الألوسي أن قوم لوط هم الذين أحدثوا هذه الفعلة الشنيعة التي تمجها النفوس السوية ؛ وفي هذا السياق المتصل بالإسراف في هذا الموضع وقف العلامة ابن عاشور يرصد المعاني المتعلقة بالاسراف . ها هنا. من وجوه تتعلق بالفطرة التى جبل الله عليها عباده،ثم من وجوه أخرى تتصل بمحاربة هذه الفعلة الشنيعة كونها اعتداء على النوع البشري فضلا عن كونها مخلة بالآدمية قال» «ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافا أنه يشتمل على مفاسد كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما جبلت عليه ؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع، لأنه يغير خصوصية الرجولة بالنسبة إلى المفعول به ؛ إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته، ولأن فيه امتهانا محضا للمفعول به ؛ إذْ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معا، ولأنه مُفْضٍ إلى قطع النسل أو تقليله، ولأنّ ذلك

الفعل يجلب أضرارا للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خُلق.»41

وهكذا يتضح أن الإسراف في صورته المادية تعددت مظاهره وتنوَّعت مداخله؛ بعضها تعلّق بأكل مال اليتيم عُنْوة من قِبَل كافله، فجعل الإسلام تشريعا يكفل لليتيم ماله ويمنع كافله أن يذهب ببعضه أو بكله. وفي السياق ذاته حارب الإسلام الإسراف على المؤمنين مطلقا؛ لأنَّه صفة ذميمة إذا اعتادها الإنسان صَعُب عليه أن يتخلى عنها. وهذا من شأنه أن يؤثر تأثيرا سلبيا على الأسرة، حين تَطلب ما تعوّدته من عادات مباحة غير أنها مُكْلِفة وحالها قدتحوّل من الغنى إلى الفاقة . وكثيرا ما تهاوت نماذج بشرية أسقطها الإسراف وحوَّلها من نماذج بشرية مثالية إلى نماذج متهاوية. وإذا حارب الإسلام الإسراف، دعا إلى التوسط والاعتدال؛لأنهما الصفتان اللتان تحافظان على ديمومة المنظومة الاقتصادية واستمرارها، وبها يشيع الخيرويعم التكافل بين المؤمنين ؛ بقانون العدالة الاجتماعية القاضي بقوله { وفي أموالكم حق معلوم للسائل والمحروم }.

وعَدَّ الإسلام وضْع الشيء في غيرموضعه من الإسراف مُطلقا، ثم قيَّده بما يؤمِّن للمقصد الشرعي المتعلق بالمحافظة على النسل . حين شاع في قوم لوط ما يُعَد تهديدا للجنس البشري، فضلا عمّا يعتوره من سلوك ليس من الفطرة ؛ تمُجّه النفوس البشرية التي لا تحيد عن القانون الإلهي القاضي بوضع الشيء المعني في موضعه الطبيعي.

المحور الثالث: محاربة الإسراف عند القصاص:

القصاص في القتل :

نقف على مفهوم هذا المعنى في قوله تعالى { ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا }. الإسراء 33، جاء الإسلام ليثقِّف كل ما هو معوجٌّ في حياة الإنسان منذ الجاهلية، وفيما اتصل بالقتل لوحظ التجاوز فيه في أثناء الجبر أو حال التقاضي، وقد أحاط الألوسي بما هو شائع أيامئذ، حيث تناول الإسراف انطلاقا من الآية السابقة فنقل ما كان شائعا بين الجاهليين في أثناء تفسيره الآية فقال { فلا يسرف } أي الولي{ في القتل} ؛ فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا والقاتل واحد كعادة الجاهلية ؛ فإنهم كانوا إذا قُتل منهم واحد قتلوا قاتله وقتلوا معه غيره.

ومن هنا قال شاعرهم مهلهل:

كل قتيل في كليب غره حتى ينال القتل آل مره

وإلى هذا ذهب ابن جبير وأخرجه المنذرمن طريق أبي صالح،عن ابن عباس: أو بأن يقتل غير القاتل ويترك القاتل، وروي هذا عن زيد بن أسلم فقد أخرج البيهقي في سننه عنه أن الناس في الجاهلية إذا قتل مَنْ ليس شريفا شريفا لم يقتلوه به وقتلوا شريفا من قومه فنهى عن ذلك « 42. وحاصل القول، أن منطوق الإسراف في الآية ورد بمعنى تجاوز الحد من وجوه:.

أولها : قتل الإثنين بدل الواحد

ثانيها : ترك القاتل وتجاوزه إلى غيره

ثالثها : إن كان القاتل غير شريف استبدل بشريف

والمعاملة في الأخذ بالثأر على هذا النحو من الإسراف، وإن دلت على شيء فإنها تدل على الفوضى التي كان يحياها الجاهليون. فالقصاص عندهم غير محكوم بقانون يجعل - بزعمهم- حياتهم تستمر، و أنَّى لهم ذلك ! وجاء الإسلام فحارب هذا التجاوز واستبدل به القصاص الذي كانت فيه حياتهم، كما قال تعالى { ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب }. البقرة 179، وهذا فيما اتصل بالتجاوز المتصَّل بالاعتداء على الإنسان في ذاته وليس قتله؛ لأنَّ القتل يجبر بالدية حفاظا على إحدى الكليات الخمس وهي حفظ النفس.

أما قوله { إنه كان منصورا } «علة النهي عن الاستئناف. أما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب.

وأما وليّه فإنّ الله تعالى نصره؛ بوجوب القصاص له فأمر الولاة بمعونته. وأما للذي يقتله الولي إسرافا بإيجاب القصاص أو التعزير، والوزر على المسرف» 43.

وقد بدا النصر من وجوه كثيرة، تَعضُد بعضَها لتصب في المقصد؛ أي الحياة المترتبة عن القصاص؛ وحينما يقع القتل فإن المقتول في الشريعة الإسلامية السمحة منصور، بالقصاص انتصارا له وهذا تكريم، وفي الآخرة ينتظره الثواب الرباني وهذا تكريم آخر.

أمّا وليُه فنصرة الله له تتجلى بوجوب القصاص جبرا لخاطره وأداء له عنه. وحتى لا تكون الفوضى، جعل الإسلام قيام الحدود تمارس في إطار الجامعة الإسلامية ووفق القواعد الشرعية و يشرف عليها الوالي أو من ينوبه.

وكما ترى فإن الإسلام حافظ على النفس البشرية حفاظا منقطع القرين؛ بحيث أحاطها بحدود تسمو بها؛ فيكرم المقتول ووليه ولا يسمح بالتجاوز والإسراف حال إقامة الحدود وإن على القاتل.

ومما سبق يتضح أن دلالة الإسراف كما وردت في الآية تفرعت معانيها في الإطار المتعلق بموضوع الآية (الإسراف) فكانت فصيحة في إطار النظم فضلا عما أدته من معان ميزتها بالخصوبة والثراء وهذا يعد من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

المحور الرابع : فرعون

ويأتي نموذج بشري عجيب كان مَنجما للإسراف بكل صوره، كفرا وكذبا وطغيانا؛ حيث لم يكتف فرعون بتقتيل الأبناء، تقتيل إبادة،على النحو الذي عرضه القرآن في مواضع متفرقة، وقد أرخ لعذاب آخر امتهنه فرعون في قومه نقله العلامة ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى { ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين } الدخان 31-30 قال:" (والعذاب المهين) هو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه من الاستعباد والإشقاق عليهم في السخرة، وكان يكلفهم أن يصنعوا له اللبن كل يوم لبناء مدينتي (فيثوم) و (رعمسيس)، وكان اللبِن يُصنع من الطوب والتبن، فكان يكلفهم استحضار التبن اللازم لصنع اللبن. ويلتقطون متناثره ويذلونهم ولا يتركون لهم راحة. فذلك العذاب المهين؛ لأنه عذاب فيه إذلال "44

وقف ابن عاشور وقفة متأنية قرأ فيها النص القرآني السابق قراءة تكشف عن تفكيره اللغوي الذي عوّدناه على امتداد التحرير والتنوير وفي مؤلفاته الأخرى45.

أما ها هنا فقال: وقوله { من فرعون } الأظهر أن يكون بدلا مطابقا للعذاب المهين فتكون (من) مؤكدة لـ(من) الأولى المعدية لـ(نجينا)؛ لأن الحرف الداخل على المبدل منه يجوز أن يدخل على البدل للتأكيد. ويحسن ذلك في نكت يقتضيها المقام وحسنه هنا، فأظهرت (من) لخفاء كون اسم فرعون بدلا من العذاب تنبيها على قصد التهويل لأمر فرعون في جعل اسمه نفس العذاب المهين؛ أي في حال كونه صادرا من فرعون. وجملة { إنه كان عاليا } مستأنفة استئنافا بيانيا للتهويل الذي أفاده، جعل اسم فرعون بدلا من العذاب المهين.

و(من المسرفين) خبر ثان عن فرعون . والإسراف الإفراط والإكثار والمراد - هنا - الإكثار في التعالي؛ يراد الإكثار في أعمال الشر بقرينة مقام الذم ووصفه بأنه (من المسرفين) أشد المبالغة في اتصافه بالإسراف من أن يقال مسرفا 46.

وهكذا وصف القرآن الكريم جبروت فرعون، وقد تجلى في إذلال شعبه بأنواع من العذاب المهين نقلها التركيب القرآني المحكم،و وصفها وصفا بلاغيا معجزا، اهتدى إليه ابن عاشور بحسه الثاقب وقدرته الفائقة على الولوج إلى النص وفق قراءة لغوية كاشفة عن إعجاز نص قرآني ومقدرة مفسر.

أما فيما تعلق بالدلالة اللغوية لكلمة الإسراف الواردة في حق فرعون كونه (من المسرفين) فقد أشارت إليها كتب التفسير، نذكر بعض ما ورد فيها على سبيل المثل لا الحصر قال الطبري: " الشرك من الإسراف وسفك الدماء بغير حق من الإسراف وقد كان مجتمعا في فرعون الأمران" 47

ودلَّت الآيات التي ساقها القرآن الكريم في وصف فرعون؛ كونه كافرا، طاغية.من ذلك ما حكاه على لسان موسى { وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب } سورة غافر27، وفي سياق تفسير الآية ذكر ابن عاشور أن صفة عدم الإيمان بيوم الحساب قرينة دالة على الكفر والإشراك فقال ما نصه وجعلت صفة (لا يؤمن بيوم الحساب) مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك؛ لأنها تتضمن الإشراك وزيادة؛ لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قلتْ مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس 48.

وتلك الجرأة والقسوة أكدها القرآن غير مرة وعبر عنها بالإسراف كونه تجاوز الحد على جميع المستويات منها ما اتصل منها بالجانب العقدي أو تعلق بالجوانب الأخرى أوما اتصل منها بالمعاملات مع خلق الله بقسوة ؛ كونها طغيانا وكفرا.

الإسراف تراكيبه ودلالاتها السياقية :

بعد أن تتبعنا الإسراف في القرآن الكريم ووقفنا على موضوعاته التي عالجها، وتعَرَّفنا على النماذج البشرية التي تفانت في الإسراف المتصل بالعقيدة أو المتعلق بالأمور المادية وشؤون الحياة بصفة عامة، وفي الصفحات الآتية: نتناول بالدراسة الإسراف في إطاره السياقي حتى نقف على دلالاته من خلال التراكيب التي يرد عليها. {قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو إلى قوله تعالى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى} طه123 - 128،

قوله {وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه} ورد الإسراف في الجملة المعطوفة لشدة ارتباطها بالتي سبقتها ولما كان العطف يقتضي المشاركة والمغايرة، فكان جزاء آدم خروجه من الجنة؛ لأنه أسرف في الشهوات التي استدرجه الشيطان إليها. ولما تعلق الإسراف بأبناء آدم فكان عدم اتباع المنهج الذي أمرهم اللهم باتباعه؛ وبه صار الإسراف إعراضا عن المنهج الذي تستقيم به حياتهم. وحاصل القول، أنّ الإسراف من قِبل آدم يمثله الإنهماك في الشهوات.أما الإسراف الوارد من قبل أبنائه -على اختلافهم- فيتجلى في الإعراض المفضي إلى الكفر؛ بدليل الجمع بين الفعل (أسرف) ونفي الإيمان (ولم يؤمن) ثم أعقبها بجملة الجزاء(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)ثم بجملة الاستفهام التوبيخي قوله {أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ...} . ذلك لأنهم لم يتّعضوا بالأمم التي سبقتهم في مساكنهم. وهذا أدعى إلى التفكير والتأمل فيما آل إليه حالهم؛ كونهم أسرفوا وسكنوا إلى اغفلة واللهو.

وبالنظر إلى الآيات السابقة للإسراف والآيات اللاحقة يتضح أن الإسراف في إطاره السياقي ورد بمعنى الكفر المفضي إلى نار جهنم. وعندما يتصل الأمر بالإسراف المادي فإنه يرد في أسلوب النهي كقوله{كلوا واشربوا ولا تسرفوا} ويتبع بجملة التذييل { لا يحب المسرفين } الأعراف 31، وقوله { وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين} الأنعام 141

كما ورد في أسلوب النفي؛ حيث نفى وصف عباد الرحمن بالإسراف، فقال { والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما } الفرقان67، فالإسراف - ها هنا - متعلق بالجوانب المادية، من مال ومتاع كالمأكل والملبس وغيرهما... وفصلنا القول هناك، ووقفنا على خلق

الاعتدال والإعراض عن الإسراف . وعندما ورد الإسراف مصدرا في جملة النهي ورد مشفوعا بجملة التعليل. فقال { فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا} النساء6.

وعندما يتصل الإسراف بالجوانب العقدية؛ المتصلة بالكفر، فإن القرآن ساقها في الأساليب الآتية:

ربط الإسراف بالهلاك، كما في قوله تعالى{.. ثم صدقناهم الوعد وأهلكنا المسرفين } الأنبياء9.

القصر بضمير الفصل ورد لانتفاء الهداية وتثبيت الضلال؛ أما انتفاء الهداية فتنزيها لمؤمن آل فرعون الذي أنصف موسى عليه السلام {إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب } تقتضي أن الإسراف في هذا السياق كذب على الله وكفربه،وهوكما في المثل " إياك أعني واسمعي يا جارة" ؛ لأنّ الكافر الكذاب هو فرعون.

أما تثبيت الضلال الوارد في الأسلوب ذاته، فورد في قوله تعالى { ولقد جاءكم يوسف بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب} غافر34، فإن الشك والريبة لازما قوم يوسف، على الرغم من دلائل نبوته.

وقوله { وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } الأعراف 31، ورد الإسراف في إطار النهي المشفوع بجملة التعليل غير أنّ السياق ليس على الأسلوب الذي ورد في سورة الأنعام وسورة الإسراء ؛ حيث ورد النهي بصيغة الجمع(لاتسرفوا) والإسراف ها هنا يلتقي مع الإفراط والتبذير، وهذا يمس الجانب الاقتصادي في حياة الناس وقد فصلنا القول في الشق الأول من هذه الدراسة وهو ملمح يستنبط منه المحافظة

على إحدى الكليات الخمس ويتعلق بالمحافظة على المال وتنميته. وعندما خرج الإسراف إلى معنى آخر غير المأكل والملبس، بل إلى إلحاق الضرر بالأنفس حال القتل فإننا نلاحظ أنّ النهي ورد مشفوعا بضمير الغيب (لا يُسرفْ) ومادام النهي عن الشيء هو الإتيان بضده فإن النهي عن الإسراف - ها هنا - هو الكف عن فعل القتل ابتداء؛ حيث عَدّ الله عدم الكف عن الاقتتال إسرافا،وهذا التركيب العجيب ورد الإسراف فيه على نحو مغاير للآيتين السابقتين فقد ورد تشريعا موجزا هكذا: جملة الشرط+ جملة الجواب ولا الناهية مقرونة بالفعل يسرف +جملة التعليل وقد فصلنا القول فيما يتعلق بنصرة الله المقتول ووليه في أثناء وقوفنا على معنى الإسراف في الآية هناك والمهم عندنا – أن الإسراف – الوارد في سياق الآية.

وإن ورد مشفوعا بالنهي فإنه أفضى إلى معنى مغاير معدوم المحَصّلة؛ لأن الآمر الله . والنهي حقيقة وليس مجازا، شأنه شأن التمثيل السالب والاستثناء المُفَرَّغ من حيث التركيب، لكن المعنى هنا أعمق وأدق. ورد الإسراف في صيغة المُضي المقترن بواو الجماعة وله خصوصية مضاعفة؛ خصوصية تتعلق بلفظ الجماعة أملته خصوصية التركيب ؛ حيث الإسراف من (العباد) يردفه النهي عن القنوط.وهنا لا بد من وقفه عند كلمة (العبد) كونها تساعد على فهم السياق،يقول محمد راتب النابلسي 49 والحقيقة أنّ في القرآن ملمحا رائعا، هو أن كلمة (العبد) تُجمع على عبيد وتجمع على عباد، والفرق بينهما دقيق؛ عبد القهر يُجمع على عبيد وعبد الشكر يُجمع على عباد، { إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } الحجر42، { وإذا سألك عبادي عني فإني قريب } البقرة 186

وفي سياق الشكر ذاته يقول الحق سبحانه { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم } الأنعام 141 . وورد الإسراف منفيا في الجملة الخبرية مشفوعا بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من اعتدال ووسطية في الإنفاق وقد ورد ذكر الإسراف بوصفه منقصة في جانب عباد الرحمن الذين وصفهم الله بصفات منها: عدم الإسراف. قال تعالى { وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما... والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما } الفرقان 63 - 67

جملة الشرط +جملة جواب الشرط+لم+فعل +جملة ثانية يتضح من هذا التركيب أن عباد الرحمن و جمل الصلة معادلة صعبة تستدعي جهدا مضنيا له متعلقات عديدة . والشاهد أن عباد الرحمن كي يحوزوا شرف الإضافة عليهم أن يحسنوا إدارة أموالهم؛ فينفقوها في إطار الاعتدال القاضي بعدم الإفراط والتفريط وهو السبيل المؤدي إلى عدم المساس بحقوق من تجب عليه إعالتهم.

أما الإسراف الوارد في صيغة المصدر، كما في قوله تعالى { وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا... على القوم الكافرين } آل عمران -146 147، وقوله تعالى { ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} قوله { إسرافنا في أمرنا } إن الآية التي سبقت آية (الإسراف) وفيها يثني الحق جل ثناؤه على تلك الصفوة من الفقهاء والعلماء الذين قاتلوا إلى جانب أنبيائهم وأبلوا بلاء حسنا،جلاه الحق سبحانه في الثبات عند لقاء العدو، فلم يصبهم الوهن والضعف أو الاستكانة لعدوهم. حمداالله لهم هذه الصفات فختم الجمل السابقة

باعتراض التذييل قوله { والله يحب الصابرين } وبالنظر إلى الآية التي تليها وقد شملت الإسراف حيث ورد في صيغة المصدر { إسرافنا } مسبوقا برجاء المغفرة من الذنوب مشفوع، بدعائهم الله أن يثبتهم على الحق و ينصرهم على القوم الكافرين.

وعليه فالإسراف الوارد في الآية ليس إسرافا متعلقا بالعقيدة وإنما هو من قبيل اتهام النفس بالتقصير للدلالة على أن العبد المقَرَّب من مولاه يظل يشعر بالتقصير في جنابه مهما قدّم؛ وبه فقد تضامن مضمونا الآية الأولى والآية الثانية ليعطيا للإسراف معنى له خصوصيته في هذا السياق ؛بحيث بدا إسرافا خاصا،يصدر عن عباد تفانوا في عبادة الله وطاعة رسله، ليس بالاتباع الكامن بل بالاتباع الحركي 50 .

الذي تبذل فيه النفس لنصرة الحق مع عدم الخوف من العواقب المترتبة عن القتال، وترتب على هذا حب الله إياهم ؛ كونهم صابرين مع الملاحظة أن الصيغة التي وردت في الآية (إسرافنا) انسجمت من حيث الصوت مع الكلمات الواردة في الآية وتضمنت معنى التذلل؛ حيث حببت نفسها لمولاها فقالوا { ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين } فـ(نا) الجماعة التي تكررت في الآية ولّدَت انسجاما صوتيا دل على الضعف والتذلل وقلة الحيلة. وهذا المقام اقتضى مثل هذا الانسجام الصوتي الذي أعطى الانسجام النفسي.

وبالنظر إلى الآية السابقة فإن المقام اقتضى العدول إلى ضمير الغيب؛ حيث جاءت الألفاظ المسندة إليه مسلوبة الضعف مشحونة بالقوة هكذا {فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا} هذا على مستوى الانسجام الداخلي لكل من الآيتين. أما الانسجام الحاصل بينهما أكدته الفاصلة القرآنية في قوله من الأولى الصابرين ومن الثانية الكافرين.

الخاتمة :

أما بعد فقد انتهت الدراسة إلى أن للإسراف دلالات كثيرة استوعبت حياة الناس وعقائدهم وكل ما يفكرون فيه،بينهم أو بين أنفسهم أو يمارسونه بوصفه خلقا أو يتعاطونه كعادة دأبوا عليها. واتضح أن المعنى الإصطلاحي والمعنى اللغوي التقيا في الدلالة على أن الإسراف هو الفعل الضائر مطلقا.وقد أثبتت الدراسة أن الإسراف منه ما هو عقدي يتصل بالإعراض عن كتابة الله أو تكذيب الرسل أو الكذب الصادر عن كبراء القوم من الكافرين الذين يُفوِّتون على أتباعهم فرص الالتحاق بالأنبياء والإيمان بهم. وفي السياق ذاته تعلق معنى الإسراف بالتّطيُّر الذي غزا عقول عرب الجاهلية فكانوا يتطيرون من كل ما من شأنه- في نظرهم- أن يَعوق حركة وفود الخير إليهم وارتبط هذا الهاجس النفسي بعقولهم حتى شارك في تكوين منظومتهم الاستشرافية، وأدى بهم السفه إلى التطير من الأنبياء، عليهم السلام، فهذا التطير من منطلق القرآن الكريم إسراف يمس اعتقادهم في الله سبحانه؛ كونه النافع والضار وليس غيره يقدم أو يؤخر.

ويتبين أنّ الإسراف في الإعراض عن منهج الله تترتب عليه متعلقات من شأنها أن تنعكس على نفسية المُعْرض في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بالحياة الضنك؛ قلق وحيرة وأرق. أما في الآخرة، فإنه يُحشر أعمى؛ لأنه عَطَّل عقله وصرفه عن النظر في كتاب الله والأخذ بما جاء فيه. وقد سجل القرآن على عرب الجاهلية تجاوزهم عند القصاص في القتل .فقد أسرفوا حال التقاضي،كقتل الإثنين بدل الواحد، أو ترك القاتل وتجاوزه إلى غيره أو استبدال القاتل بغيره؛ فإنْ كان القاتل غير شريف استُبْدِل بشريف.

عالج الإسلام هذه القضية علاجا منقطع القرين، حين أحاط بالنفس البشرية بحدود تسمو بها؛ حيث كرم المقتول ووليه ولم يسمح بالتجاوز والإسراف عند إقامة الحدود وإن على القاتل.

كما حارب الإسلام القصاص في الجاهلية واستبدله بقانون يضمن استمرار الحياة، ويحافظ على النفس البشرية حفاظا غير مسبوق،حين أحاطها بحدود تسمو بها؛حيث أكرمت المقتول ووليه منعا للفوضى، حال تطبيق الحدود في إطار الجامعة الإسلامية؛فأسند تطبيق الحد إلى الوالي،وقدم تقديم الدية حال القتل الخطأ، واستبدل القتل برضا الولي بالدية وفق منظومة تشريعية فصّلها الفقهاء في مضانها، وانتهت في جميع صورها إلى أن ولي المقتول منصور بنص الكتاب { ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا }.

أما فرعون فاجتمعت فيه معاني الإسراف السابقة وزاد عليها، حتى استوى مادة للإسراف،تناولها القرآن من جميع جوانبهابوصفه الشخصية المسرفة،عاشت تتعاطى الإسراف وتمعن فيه كذبا وكفرا وطغيانا إلى آخر لحظة في حياته،فكان الإسراف معلما من معالم كينونته،حتى وصفه الحق بأنّ خصوصيته مؤسسة على الإسراف بالطرائق التي عرضها القرآن الكريم وتناولتها الدراسة على اختلافها وتنوعها.

وبه تكون الدراسة قد أحاطت بدلالات الإسراف في القرآن الكريم ضمن المحاور التي وقفت عندها، وبذلك لم يعد الإسراف كما استقر في أذهان الناس مرتبطا بالإسراف المادي وحسب، بل بيّنت الدراسة أن للإسراف معاني قامت من أجلها وقدمتها كما مر في الصفحات السابقة.

المصادر والمراجع:

- ابن عاشور، محمد الطاهر التحرير و التنوير، الدار التونسية للنشر تونس –المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .

- ابن كثير، اسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير ابن كثير دار طيبة للنشر و التوزيع و عالم الكتب للطباعة بيروت 2002 .

- أبو السعود، محمد ابن العمادي، ارساء العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، مكتبة الرياض الحديثة.

- أبو الفداء محمد، لسان العرب، دار صادر بيروت .

- الألوسي، شهاب الدين أبو الثناء محمد الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت .

- البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد الفراء، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل .دار إحياء التراث العربي بيروت .

- الجرجاني، علي بن محمد معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة القاهرة 2004 .

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، خرّج أحاديثه و علّق عليه خليل مأمون شيخا، دار المعرفة بيروت .

- السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر بيروت .

- السيوطي، جلال الدين و المحلّي جلال الدين، تفسير الجلالين بهامش القرآن الكريم المكتبة العصرية بيروت .

- الشوكاني، محمد بن علي ابن محمد، فتح القدير دار ابن حزم بيروت2000 .

- الصالح، صبحي، نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، ضبط نصه و ابتكر فهارسه العلمية صبحي الصالح دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني .

- الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن -، دارعالم الكتب بيروت .

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الجامع لأحكام القرآن مؤسسة الرسالة بيروت .

- النابلسي، محمد راتب مقوِّمات التكليف، دار المكتبي، دمشق 2005.

- النسفي عبد الله بن أحمد أبو البركات، تفسير النسفي – مدارك التنزيل و حقائق التأويل- .

هوامش البحث:

1 لسان العرب، مادة سرف بتصرف

2 لسان العرب، مادة سرف بتصرف

3 لسان العرب، مادة سرف بتصرف

4 علي بن محمد الجرجاني ت 1413معجم التعريفات ص23، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة

5 التحرير والتنوير 25 /163

6التحرير والتنوير 25/ 164 بتصرف 7 التحرير والتنوير 25/164 بتصرف

8القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 11/259

9 تفسير البغوي 3 /198

10 نفسه

11 الدر المنثور 5 /610

12 تفسير الجلالين 3/ 98

13 فتح القدير ص1121

14 تفسير النسفي 3/ 71 بتصرف

15 تفسير أبي السعود 6/ 48

16 التحرير والتنوير 19/ 174 - 175

17 تفسير الكشاف 3/ 381

18 -تفسير البغوي 3/ 372

19 التحرير والتنوير 19/ 174 - 175

20 التحرير والتنوير 19 / 176

21 التحرير والتنوير 17/ 21

(20)- التحرير والتنوير 24/4

22 تفسير النسفي 4/6 وينظر روح المعاني 22-22/22521)

23 تفسير النسفي 4/6 وينظر روح المعاني 22/225

24 التحرير والتنوير 24/44

25 ينظر تفسير الطبري 24/16، والدر المنثور 7/ 236

26 تفسير الطبري 4/ 254

27 نفسه

28 روح المعاني 4/207، وتفسير أبي السعود 2/144 (

29 ينظر تفسير أبي السعود 3/192 بتصرف

30 تفسير البغوي 2/131 وينظر تفسير القرطبي 7/191

31 تفسير القرطبي 7/195

32 التحرير والتنوير 8 ب/121

33 نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، د. صبحي الصالح، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية، 377

34 تفسير القرطبي

35 تفسير القرطبي

36التحرير والتنوير 08/ 95 بتصرف

37 نفسه

38 التحرير والتنوير 19 /71 - 72

39 التحرير والتنوير 19/ 71

40 التحرير والتنوير 19 /72

41 التحرير والتنوير 8/232

42 روح المعاني 15 / 69 بتصرف

43 تفسيرالكشاف 2/ 665

44 التحرير والتنوير25/332

45 ينظر مثلا: كشف المغطى وفي تحقيقه ديوان بشار، وفي تحقيقه ديوان النابغة، وفي كتابه النظام الاجتماعي في الإسلام

46 التحرير والتنوير 25/322 - 333

47 التحرير والتنوير 25/332 - 333

48 التحرير والتنوير نفسه

49 د.محمد راتب النابلسي، مقومات التكليف ص 121، دار المكتبي،دمشق2005

50وفي هذا المعنى يقول الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم - ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل .